

النصيحة بين تفعيل المبادئ وتحقيق المقاصد.

د. حمزة لعيدية.

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

- جامعة وهران -

الملخص:

النصيحة هي الدين، وبالدين أرسل النبيون، وهي إرادة الخير للمنصوح له، ودفع الشر عنه، وهي مشروعة بالكتاب والسنة، والإخلال بها نقص في الدين، وهي مبنية على فقه وفهم، وتتم بالكلمة، وبالفعل للقدوة، ولا مداهنة فيها إلا تحقيق العبودية لله والخير للعباد والبلاد في الحال والمآل. وتقوم على مبادئ ذكرها الكتاب والسنة؛ منها: (النصح لله، ولإسداء الخير للمنصوح له وتقديم مصلحة له لا إلى نفع الناصح، مع الحرص والتواضع والسرية والابتعاد عن المراء والجدل). وخاتمة فيها: أن يحقق الناصح من النصيحة المقصد الشرعي، وهي وسيلة تربوية مهمة في بناء الأفراد والمجتمعات، والقصص القرآني وسيرة النبي ﷺ مثال في النصيحة ينبغي أن يقحم في جميع مراحل التعليم.

الكلمات المفتاحية: النصيحة، الحكمة، الصلاح، السلوك. الكلمة.

Summary:

Advice is religion, and with religion the prophets were sent, and it is the will of good for the one advised to him, and to repel evil from him, and it is legitimate by the Book and the Sunnah, and breaching it is a deficiency in religion, and it is based on jurisprudence and understanding, and it is done by word, and indeed by example, and there is no deceit in it except the realization of slavery to God and goodness to the servants And the country now and then. It is based on principles mentioned in the Qur'an and Sunnah; Including: (Advice to God, and to do good to the one advised to him,

and to present a benefit to him, not to the benefit of the advisor, with care, humility, confidentiality, and avoidance of argument and controversy). And a conclusion in it: that the counselor achieve the legal purpose of the advice, which is an important educational tool in building individuals and societies, and the Qur'anic stories and the biography of the Prophet Peace be upon him are an example of advice that should be inserted into all stages of education.

Keywords: advice, wisdom, righteousness, behavior, Word.

مقدمة:

الحمد لله الذي تعبدنا بصالح الأعمال، وأناطها بمصالح العباد، فجعل النصح أسلوباً ومنهجاً مرضياً للوصول إلى الحق الذي يرضاه، والصلاة والسلام على الداعي إلى صراط الله المستقيم، الذي سلك طريق النصح في دعوته، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، والصلاة موصولة إلى كل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين. التناصح مهمة مشرفة وعبادة مقربة، أجراها عظيم وثوابها جزيل، فهي مهمة الأنبياء، سنوا لها ضوابط وشروط، صدقوا الله في أقوالهم وأفعالهم؛ لا يقصدون بذلك إلا وجه الله تعالى، فهم أحق في الإتيان لمنهجهم والافتداء بمذاهبهم، وأنجح الناس في أداء هذه الرسالة من ترى وراثت النبوة في خلقه وسلوكه، فشرع النصيحة وجعلها النبي ﷺ الدين بمراتبه الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، وذلك فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة" قلنا: "من يا رسول الله؟" قال: "الله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (1). قال الحافظ ابن حجر: "يحتمل أن يحمل على المبالغة أي معظم الدين النصيحة، كما قيل في حديث "الحج عرفة" (2)، ويحتمل أن يحمل على ظاهره لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين" (3).

ولله در البخاري في طريقة التصنيف، فذكر ابن حجر قائلاً: "ختم البخاري كتاب الإيمان بباب النصيحة مشيراً إلى أنه عمل بمقتضاه في الإرشاد إلى العمل بالحدِيث الصحيح دون السقيم، ثم ختمه بخطبة جرير (4) المتضمنة لشرح حاله في

تصنيفه... ثم عقبه بكتاب العلم لما دل عليه حديث النصيحة أن معظمها يقع بالتعلم والتعليم.

جماع القول أن صحيح البخاري عبارة عن نصيحة يقدمها الإمام البخاري للأمة يرشدهم بضرورة محافظة على الحديث الصحيح وطرح الحديث السقيم، ثم يعقب بضرورة العلم والتعلم والتعليم، وهذا أمر جسيم إذ يمكن أن يتقدم أحدهم للنصح وليس له رصيда كافيا، فماذا يصنع وقتئذ؟
تمهيد:

معنى النصيحة: لعل أبلغ ما قيل فيها ما ذكره ابن الأثير رحمه الله تعالى " النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة وهي إرادة الخير للمنصوح له ودرء الشر عنه في أمور دينه ودنياه وأخراه، لأنها حق مشترك بين المسلمين وواجب متبادل"، فبلغ من جماع هذه الكلمة وبلاغتها أنه لا يمكن التعبير عن هذا المعنى بكلمة واحدة إلا كلمة النصيحة.

ومن أدلة المشروعية:

قوله تعالى: ﴿ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " [الأعراف. الآية 62]. الشاهد أن الله تعالى ذكر نوحا عليه السلام بصيغة الفعل، والفعل يدل على تكرار الحدوث أي أنها مهمة الأنبياء والرسل، وأنهم مطالبون بالحرص وعدم الملل والتهاون في النصح، ثم ذكر هودا بصيغة الوصف، فقال تعالى: ﴿ أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف. الآية 62].

عند التأمل في الخطاب القرآني نستشف منه طريقة النصح بين نوح وهود عليهما السلام، فأما نوح عليه السلام كان أكثر نصحا لقومه في التكرار ليلا نهارا، سرا وعلانية ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح، الآية: 8-9]، بينما هود عليه السلام كان يدعوهم حيناً بعد حين، وفرة بعد فترة.

وتكون النصيحة حيلة العجزة، فحين عجزت نسوة مصر عن إرضاع موسى عليه السلام، التمسّت أخته من فرعون أن تأتیه بأمه لترضعه فافتنع فرعون وقومه بالنصيحة، قال تعالى: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصاص. الآية 12].

تشرع النصيحة قصد⁽⁵⁾ رفع الحرج والغبن عن المعذورين كما هو شأن القاعدين في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة. الآية 91].

الشاهد أن النصيحة شرعت للضرورة عمن تخلفوا عن الجهاد بسبب الشيخوخة أو المرض.

ومن القواعد الكلية:

يشهد لذلك المنهج التشريعي العام القاضي بضرورة النصح للناس في أمور دينهم ودينهم وأخراهم، يقول الإمام الذهبي معلقاً على حديث "الدين النصيحة" فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله "الدين النصيحة" فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعمامة، كان ناقص الدين، وأنت لو دعيت: يا ناقص الدين لغضبت فقل لي: متى نصحت هؤلاء؟!⁽⁶⁾

ومن السنة:

قوله ﷺ لجبرير بن عبد الله "والنصح لكل مسلم"⁽⁷⁾، فاشتراطه النصح لكل مسلم ظاهر فيه مصلحة العباد والبلاد في الحال والمآل، في الأفراد والاجتماع، ومن ذلك قوله صلى عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم ست: ... وإذا استنصحتك فانصح له"⁽⁸⁾، فالأمر الوارد يقتضي الوجوب مضافاً إليه كلمة "حق" في بداية الحديث، والتي ترشد كما نبه ابن حجر رحمه الله تعالى إلى أن الحق لابد أن يؤدي.

ومن ذلك أمره ﷺ لمعاذ بأن ينصح ويرشد ويذكر بالكلمة الخالصة إلى كلمة الإخلاص وإلى أمور الدين بأسلوب النصيحة وكذلك السرايا والجيوش التي يرسلها أول ما يأمرهم بأن ينصحوا ويدعوا إلى الإسلام⁽⁹⁾.

ومن الشواهد اللغوية:

أن النصيحة هي التخليص من الشوائب والغش كأن الناصح يخلص المنصوح من هذه الرواسب ومن ذلك قوله تعالى ﴿توبه نصوحاً﴾ [التحریم. الآية 8]، أي خالصة من الذنوب والرياء...

ومن ذلك أيضا النصح هو الخياطة، والمنصحة هي الإبرة، والمقصود أن الإنسان يلم شعث أخيه من عيوب ونقائص ومخالفات كالإبرة تلم الثوب المهترى الذي يراد رتقه.

وبهذا شملت النصيحة جملة من الأمور الضرورية من إخلاص وصدق ونقاء وصراحة وصفاء وإصلاح...

- المبحث الأول: قواعد عامة في النصح.

للنصيحة قواعد عامة يدركها من ولج هذا الصرح، نذكر جملة منها للتأكيد لا للتأسيس:

1- رسالة رحمة:

لأن النصيحة تحتاج إلى رفق ولين كانت رسالة الإسلام رسالة رحمة، فمن حملها وآمن بها كان رحيمًا بالناس تأسيسًا بالرسول ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: الآية 107]، ذلك لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وتودد إليها، وبغض من أساء إليها ونهرها، كما أنها تألف الاعوجاج والتمرد خاصة إذا طال عليها الأمد فيقسو القلب وتتشعب السبل وقد قيل: إن الأشياء بضدها تتميز، فالناصح المخلص من وفقه الله تعالى إلى أقفال القلوب ففتحها برفقه، وتعامل معها برحمته، واستحضر مشاعر المودة في مخاطبته إياها، حينها تلين القلوب القاسية وتستقيم الجوارح العاصية، فما كان من القلب وصل إلى القلب، وما كان من اللسان لا يتجاوز الآذان.

2- فقه النصح:

مبنى النصيحة الحكمة، والحكمة هي مقتضى الحال، رضوان الله عليك يا علي بن أبي طالب حين قلت: "إن للقلوب إقبالا وإدبارا، فإذا أقبلت فأحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقصروا بها على الفرائض" هذا هو فقه تلامذة المدرسة الحمدية، الذين أحسنوا النصح والإرشاد، فمن استطلع السيرة الشريفة رأى في هديه ﷺ الرفق الذي يرفض العنف، والرحمة التي تنافي القسوة، واللين الذي يأبى الفظاظة، والستر الذي ينفر التعرية، يقول الفضيل بن عياض: "المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير" فكل معصية عيرت بها غيرك فهي إليك⁽¹⁰⁾ فالناصح الناجح لا يظهر

الشماتة بأخيه فيرحمه الله ويبتليك، فلتكن خلف لصفي الله تعالى والقائل فيه: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ [التوبة. الآية 128].

3- الكلمة كائن حي: الكلمة الطيبة في المنظور الإسلامي كائن حي مؤثر، من أجل ذلك تعين التنبيه إلى أهميتها والتنويه بها، انطلاقاً منها تفتح القلوب للتلقي والآذان للسمع، والجوارح للعمل بها، ولن يتحقق هذا المقصود إلا إذا كان الناصح رفيقاً رقيقاً، فالنصح علاج مر فليصحبه شيء من حلو الكلام، وليكن الناصح من الذين يعلمون الحق ويرحمون الخلق، وهذا يجي بن معاذ يقول: "أحسن شيء كلام رقيق، يستخرج من بحر عميق على لسان رجل رفيق" (11).

والسنة النبوية تفيض بالتوجيه والتنبيه إلى هذا الأسلوب التربوي، مثال قصة الأعرابي الذي بال في المسجد فنهره الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن النبي ﷺ الرحمة المهداة والناصح الأمين دعاه فنصحه وبين له أن هذه المساجد لم تبن لمثل هذه النجاسات، وإنما للصلاة والذكر، حتى أنه حجر واسعا فقال اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد.

4- لا مداينة:

الناصح الحاذق هو الذي لا يصادم الفطر بقوة وخشونة اللفظ، وإنما يتخير طيب الكلام ولا يعني أن في ذلك مداينة أو نفاقاً أو تعطيلاً للشرع، بل هي مراعاة النفسيات كما تراعى المصالح والمقاصد، والشاهد في ذلك ما يرويه البخاري عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: "أن ائذنوا له بنس أخو العشرة" فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: "يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألتت له في القول"، فقال عليه الصلاة والسلام: "أي عائشة إن من شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه"، كما أن أبا الدرداء كان يقول: "إنا لنكتشر - نبتسم - في وجوه قوم؛ وإن قلوبنا لتلعنهم".

وهذا الفاروق يقولها ملء الفم: "لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبلها".

من هذا المعين: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه" ومن: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه"⁽¹²⁾ وأصل السلف الصالح النصيح، فكانوا علماء في فهمهم، رحماء في نصحتهم.

– المبحث الثاني: مقاصد النصيحة:

في تشريع النصيحة أسرار عظيمة وغايات سامقة، ارتأيت استخلاص جملة من هذه المقاصد العزيزة من حديث الباب "الدين النصيحة":
– تحقيق الحرية للعباد والبلاد:

أجمل الرسول ﷺ الدين كله في النصيحة، وهذا الأمر بقدر عظمته بقدر خطورته، فهو يتأرجح بين كفتين، بين إقبال وإهمال، بين وجود وعدم، بين إحقاق لحق وإبطال لباطل، بين جلب مصلحة ودرء مفسدة، والمراد من هذا أن النصيحة إذا عمّت وانتشرت فالدين بخير وحقّ الحق وأبطل الباطل وتحققت المصلحة ودفعت المفسدة، أما إذا منعت النصيحة وصمت أهل الحق وامتنع أولو النهى عن النصيح، معناه أن الدين في خطر والناس في هلاك، وبهذا يعدم مقصد ضروري من الكليات الخمس ألا وهو الدين، ويصبح الناس في هرج ومرج.

قال الحافظ أبو نعيم: "هذا حديث له شأن"، وذكر محمد بن أسلم الطوسي: "أنه أحد أرباع الدين" أي أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الدين، فعارضه الإمام النووي قائلاً: "بل على هذا الحديث وحده مدار الدين".

ومن هنا قال الإمام الغزالي: "إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – النصيحة – هو القطب الأعظم في الدين وهو مهمة التي ابتعث الله لها النبيين ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفتنة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق وخربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد"⁽¹³⁾.

1– تشوف الناصح مقام العبودية:

انطلاقاً من حديث أبي أمامة الذي يرويه الإمام أحمد قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله عز وجل: أحب ما تعبدني به عبدي النصيح لي" التشوف إلى هذا المقام

لهو من أسنى المقاصد الشرعية التي يسعى المكلف لتحصيلها، خاصة إذا وافق قصده قصد الشارع الحكيم في تفعيل هذه الفريضة، فهو قائم على مشروع الله تعالى الذي أرسل من أجله الأنبياء والرسل.

2- الوقوف عند حق الله وحق العبد:

يتجلى ذلك أولاً في إسقاط الواجب عن القائم بالنصيحة، فهي واجبة على من استجمع أحكامها وحكمها من إخلاص وجودة وإتقان، وفيها تحقيق معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ أنه جزء من النصيحة كما أنها وسيلة من وسائله، أما عن حق العبد فهي بمقام القيام بحقوق الأخوة الإسلامية، فالنصيحة لا تنطلق إلا بشعور بالمسؤولية، فلما تشعر بالمسؤولية عن أفراد المجتمع تشعر بالمسؤولية عن حقوق الله تعالى التي ألزمك بها.

3- تحقيق السعادة في الحال والمآل:

النصيحة صمام الأمان من الوقوع في الشرور والمفاسد، بها يستقيم الفرد والمجتمع، وتسود المحبة والألفة والتعاون والتعاقد، والحرص على مصلحة الآخرين، ورجاء مجتمع لا تشوبه المحرمات والمنكرات والسلبيات والموبقات، فهي صورة لمجتمع متكامل.

4- من مقاصد النصح شكر المنعم :

المستعرض لتعاليم التناصح في التشريع ليدرك جملة من الثمرات، أعظمها أنه وارث محمدي، ورث الأنبياء والرسل في مهامهم من الاشتغال بالنصح والحرص على صلاح الفرد والمجتمع، وهذا من مقتضيات الإيمان الحق الذي يستحق أهله الخلافة في الأرض، والتمكين من أسبابها، بذلك تبوأ مقاما رفيعا، وهذه نعمة توجب الشكر، كما أنه مجازى عليها بالنعيم، موقى بسببها عذاب الجحيم.

المبحث الثالث: مبادئ التناصح:

أولاً: شعور المنصوح أنك تنصحه إلى ما فيه خير وصلاح له لا إلى نفع شخصي:

أول خطوات النجاح في تقديم النصيحة ثبات الناصح، لأن هذه المهمة صعبة إذا تصادمت مع قلوب قاسية ونفوس مأكرة، فشعور من تنصحه بأنك لا تريد

منهم جزاء ولا شكورا إنما تسعى لجلب نفع لهم وإرادة الخير، فإن وقفوا في طريقك وصدوك عن السبيل فليكن لسان حالك: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه " وكأن القرآن يخاطبك ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف. الآية 43].

فإن التمس المنصوح في الناصح المبدأ وأدرك أنه قصدك وغايتك أيقن أن نصيحتك أخوية وتمسك بها وبك، ولنا في القرآن دروسا وعبرا فكل نبي ورسول يقول لقومه مؤكدا بعده عن المغامر الشخصية والمكاسب المادية ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء. الآية 109]، قالها نوح وقالها من بعده هود وصالح وشعيب ومن جاء بعدهم من رسل الله وأنبيائه.

مع بلقيس:

فطنت "بلقيس" بذكائها إلى اختبار سليمان عليه السلام ومعرفة مقصده وغاية ما يسعى إليه حين أرسل إليها برسالة الإسلام، أرادت أن تتأكد من صدقه ومبدئه، فأرسلت بهدية "والهدية تلين القلب وتعلن الود، فقد تفلح في دفع القتال، وهي تجربة، فإن قبلها سليمان فهو أمر دنيا ووسائل الدنيا لا تجدي، وإن لم يقبلها فهو أمر عقيدة الذي لا يصرفه عنه مال ولا عرض من أعراض هذه الأرض" (14).

يقول ابن عباس رضي الله عنه: "قالت لقومها إن قلب الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه" (15) فلما رفض قالت إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

ثانيا: شعور المنصوح أنك حريص على مصلحته، تحب له الخير:

الناصر المخلص هو الذي يحرص كل الحرص على سلامة إخوته، والأخ الخائف عليهم يسهر على تحقيق الخير لغيره، يسعى لجلب السعادة ويخشى عليهم من عذاب يوم عظيم، وهذه صفات الأنبياء والرسل ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء. الآية 135].

مع مؤمن يس:

الحرص الشديد والخوف العميق يصوره القرآن في هذه القصة الرائعة ﴿وجاء من أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ. ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنْ إِذَا تُفِيَ ضَلَالٌ مُبِينٌ. إِنِّي أَمُنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ. قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبي وَجَعَلَ لِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس. الآيات 20/27].

يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنه: "نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته"، وقال أبو السعود: "إنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر، والتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان، جريا على سنن الأولياء في الترحم على الأعداء" (16).

مع مؤمن فرعون:

الرجل الذي سعى إلى قومه يرشدهم إلى سبل السلام، يتسلل إلى القلوب بالنصيحة التي تسيل رقة ممزوجة بالتخويف والإقناع ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر. الآية 28]، استحضر مآل كلماته والأسلوب الذي نصحهم به ناظرا إلى أثره وآثاره، إنه نوع من أنواع علم البيان، فخطبهم بالنصح والملاطفة وكررها مرات ببصيرة وحكمة وحرص شديد على تخليصهم مما هم عليه من ضلال، مرغبا حيناً ومرهبا آخر، مركزا على تأليف القلوب.

ثالثا: عدم التعنيف:

ملاطفة من يرجى إسلامه لتأليف قلبه أمر مرغوب فيه، فما بالنا بمن يرجى توبته وهو مسلم، مسلم أمره بين يديك يتوسم فيك النصح، فالعنف لا يأتي بخير ولا ينتج منه إلا الفرار والصد وهذا أبسط نتاجه، قال تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا ثُمَّ لَعَنَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه. الآية 44]، فالإرشاد يحتاج إلى الحكمة والتأني في الأمور، والمعرفة بطبيعة الإنسان وعناده وتمرده، وأنه أكثر شيء جدلا فلا بد من الترفق في الولوج إلى عقله والتسلل إلى قلبه حتى نلين من شدته، ونكفكف من جموده، ونطامن من كبريائه (17)، قال حماد بن مسلمة: "أن صلة بن أشيم مر عليه رجل قد أسبل

إزاره-إشارة إلى الكبر- فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة، فقال: دعوني أنا أكفيكم، فقال أشيم للرجل: يا ابن أخي إني لي إليك حاجة، فقال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك. فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره، فقال لأصحابه: لو قرعتموه لقال لا ولا كرامة وشتمكم⁽¹⁸⁾.

رابعا: تقرب الناصح من المنصوح والطلاقة في وجهه:

لغة التصرفات والحركات عامل مهم بين الناصح والمنصوح، فمتى كانت حيوية ونشاط وسلوك طيب أدخل السرور على المنصوح واجتذبه إلى الناصح وهيأه للسمع بنفس راضية، كأن يهش في وجهه حين يلقاه أو يربت على ركبتيه أو كتفه أو يديه منه وهو يتحدث إليه أو يعطيه وجهه حين الحديث معه والإنصات إليه، أو يناديه بأحب الأسماء والكنى، ليشعر بقرب الناصح منه وقربه منه، ولنا في سنة المصطفى ﷺ عبرة من حديث " الإسلام والإحسان والإيمان " فقال الإمام النووي معقبا على ذلك: " ينبغي للعالم أن يرفق بالسائل ويدنيه منه ليتمكن من سؤاله غير هائب ولا منقبض ".

ما أروع أبا حفص عمر بن الخطاب، الشديد وقت الشدة واللين وقت اللين، أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن الأصم قال: "كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه فقال: أكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك. فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: أدعو الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب إلى الله، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب قد حذرني عقوبته، ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يردد على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزاع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادعوا له أن يتوب ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه⁽¹⁹⁾.

خامسا: تواضع الناصح وإنزال المنصوح منزلته:

كان رسول الله ﷺ ينزل الناس منازلهم، يوقر كبيرهم ويعطف على صغيرهم، ويكرم من كان له سبق في الإسلام، يقول ابن كثير: " كان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناس من أهل بدر منهم ثابت بن قيس وقد سبقوا إلى المجلس فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشق ذلك على النبي ﷺ فقال لمن حوله- من غير أهل بدر- قم يا فلان، قم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على من أقيم من مجلسه، وطعن المنافقون في ذلك وقالوا: ما عدل مع هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه!!! فأنزل الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجْلِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: الآية 11].

بهذا الأسلوب القرآني والنبوي تملك الآخر وتكسب ثقته، وتأسر قلبه، وتحركه نحو الفضيلة فيكون كله آذان صاغية، فالنصيحة هي إحسان إلى المنصوح بصورة الرحمة له، والناصح المخلص لا يحتقر أخاه عند نصحه لقوله ﷺ: " بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم " (20).

سادسا: الأسرار بالنصيحة أولى من الإعلان:

جلبت النفوس على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والنصيحة طعمها مر وقد تنقلب إلى فضيحة إذا لم يختار الناصح القنوات المناسبة لإيصالها فيخلط السم بالدسم، ولأن النصيحة يراد بها وجه الله تعالى، وهي الغاية فلا بد وأن يكون للوسيلة من شرف الغاية ما ينأى بها عن التشهير والتنكيل بالعصاة مدفوعين بشهوات الانتقام والاستعلاء والرغبة في كشف المخبوء (21)، فكسب القلوب أهم من كسب المواقف، وعليه أن يتحرى الأسلوب الأقوم، والتعبير الأكرم في النصح لأن ذلك أوقع في النفس وأحوط من الوسائس، قال علي رضي الله عنه: " النصح بين الملأ تقريع".

فالناصح يضع نفسه مكان المنصوح قبل أن ينصح، وليكن شعاره قوله ﷺ " لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه " (22)، ومن خلال هذا الموقف التربوي يتعلم الناصح تقنيات النصح النبوي وذلك في حجة

الوداع وما حدث من الفضل والمرأة الخنعمية والكيفية التي عالج بها الرسول ﷺ الموقف قائلاً: "هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له" (23).

نتأمل فقه النصح من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فيما أخرجه البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "كنت مع عمر في حج أو عمرة فإذا نحن براكب، فقال عمر: أرى هذا يطلبنا، فجاء الرجل فبكى، قال: ما شأنك؟ إن كنت غارماً أعناك، وإن كنت خائفاً آمناك إلا أن تكون قتلت نفساً فقتل بها، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم، قال: إني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وإن أبا موسى جلدني وسود وجهي وطاف بي في الناس، وقال: لا تجالسوه ولا تواكلوه، فحدثت نفسي بأحد ثلاث: إما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولي إلى الشام، فإنهم لا يعرفوني، وإما أن ألحق بالعدو فأكل معهم وأشرب. فبكى عمر وقال: ما يسرني أنك فعلت وإن لعمر كذا وكذا، وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية، وإنما ليست كالزنا وكتب إلى أبي موسى: سلام عليك أما بعد، فإن فلانا ابن فلان أخبرني بكذا وكذا، وأيم الله إني إن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد فأمر الناس أن يجالسوه ويواكلوه، فإن تاب فاقبلوا شهادته، وحمله وأعطاه مائة درهم" (24)، هذا هو الفقه العمري في التوجيه والنصح لشارب خمر ولوالي من ولاية المسلمين بل صحابي جليل يهدده لأنه أساء الوعظ وأعان الشيطان على المسلم حتى راودته أفكار قاتلة من قتل أو اللجوء إلى العدو نتيجة التشهير والغلظة.

تأسيساً على الاجتهاد العمري، قعد الإمام البخاري قاعدة جوهرية في تقديم النصيحة، يقول فيها: "الإسرار بالنصيحة أولى من الإعلان، وقد يتعين إذا جرّ الإعلان إلى مفسدة" (25) معنى ذلك أنه يتعين الإسرار لا من باب الأولى بل من باب الوجوب إذا جرّ الإعلان إلى مفسدة، ومعلوم أن صفة الحكم تتغير فترتقي من الأخف إلى الأثقل إذا عارضت مفسدة معينة مصلحة مؤكدة، لهذا تقرر أن كسب القلوب مقدم على كسب المواقف.

قال بعض السلف لإخوانه إنك لا تنصحي حتى تقول في وجهي ما أكره، لأن هذا إحسان أن تخبر أخاك بالعيب الذي عنده، وقد قيل لبعض السلف: أتحب

أن يخبرك أحد بعيوبك؟ فقال: إن كان يريد أن يوبخني فلا، ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله في أبياته المشهورة وهو يتكلم بلسان عامة الناس؛ وهو من هو يتقبل النصح حتى ممن يشهر به:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبي النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت قولي فلا تغضب إذا لم تعط طاعة

سابعاً: تجنب الخلافات الفقهية والابتعاد عن المراء:

من المقررات الشرعية أن أحكام الإسلام إما أصلية وإما فرعية، أحكام متفق عليها أو أحكام مختلف فيها، والخلاف الفقهي لا ينكره العقلاء، فكل فقيه أجهد واجتهد ليصل إلى الحكم الصحيح عن طريق الدليل، وكلهم من رسول الله ملتصق، يقول الإمام النووي "إن المختلف فيه لا إنكار فيه، لكن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله برفق".

هذه قضية غاية في الأهمية خاصة في سلك التعليم، فحاجة الأسرة التربوية والتعليمية للنصح والتناصح بين أفرادها طلبة وأساتيد من أهم الأسس والأساليب التي تعينهم في حياتهم العملية لبناء شخصياتهم وتعديل سلوكهم، كم من طالب تشوش فكره في مسائل فقهية، وتعصب لمذهب دون آخر؛ بل جرح وأذنب في حق غيره، لكن بالتروية والتوضيح والتوجيه السليم عاد إلى الصواب واقتنع بأن هذه سنة الله في خلقه، وطرح ذلك الشك، واعتمد قاعدة ثمينة؛ وهي: "نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه" وبهذا تحققت الأهداف المنشودة في العملية التعليمية والتربوية، وكان سند هذه المحاولات الإصلاحية المربي الكريم والموجه الحكيم محمد رسول الله ﷺ.

وما هذا إلا محاولة لإبراز الجانب القولي والفعلية في إتباع أسلوب النصح والتذكير في مجال التربية والتعليم.

الخاتمة:

وهي تأكيد واستدراك للخلل والجواب لترقيع ما نقص، من أجل ذلك ثمة توجيهات ينبغي أن يهتم بها الناصح الأمين، فتكون له متكنا وعونا في مهمته النبيلة، وهذه بعضها تمثيلا لا حصرا:

- على الناصح أن يتحرى قصده حين النصح فيقصد ما قصده الشارع الحكيم.
- النصيحة أصل عظيم ومبدأ تربوي أصيل مستنبط من وحي الكتاب والسنة.
- النصيحة مسلك من المسالك التي سلكها القرآن الكريم والرسول ﷺ في توجيه الناس، وإرشادهم نحو سبيل السلام، ونبذ ما هم عليه من كفر وضلال.
- مبنى النصيحة المصادر الشرعية، قواعدها شروط محكمة فنية كالعلم، والحكمة، والموعظة الحسنة، والرفق واللين، ومعرفة ظروف الزمان والمكان وحال المنصوح، والإسراع بها دون العلانية، وعدم الشد على المنصوح والضغط عليه.
- النصيحة بالأسلوب المناسب والموافق للمقام هداية وغاية أولى للناصح يترتب عليها الجزاء الكبير من الشارع الحكيم، وأمل الناصح هو اهتداء الناس.
- تنوع أساليب القرآن الكريم والسنة المطهرة في النصح، والدعوة إلى الدين القويم تنوعا يدل على عالمية رسالة الإسلام وصلاحياتها لكل زمان ومكان.
- على الناصح أن يراجع وسائل النصح على ضوء مستجدات العصر طبقا لظروف المكان والزمان، فالجمود على وسائل بعينها وعدم القدرة على تجاوزها مضیعة للعمر والأجر والعمل.
- تراجع نسبة قبول النصيحة إنما سببه عدم تطبيق الأساليب الصحيحة وعدم اختيار القنوات السليمة، وهذا ما يلاحظ في سلك التعليم، إضافة إلى غياب منظومة تربوية رشيدة تسهر على ترشيد المتعلم.
- ضرورة الاهتمام بالنصيحة لما لها في الإسلام من آثار تربوية كثيرة، متعلقة ببناء الشخصية في جميع جوانب الحياة.
- برجمة فصول من قصص القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيرة السلف الصالح في جميع الأطوار الدراسية لتكون عوناً للمربي في التوجيه والإرشاد، وسراجاً للمتعلم وموعظة وتذكرة.

- الحذر ثم الحذر من الملل والتخلي عن هذه الفريضة مهما بلغ الأمر، فلا تدري متى تفتح القلوب.
- تذكر دائما مفعول الكلمة الطيبة في قلوب أشد قسوة من الحجارة.
- اليقين في الله بأن نصيحتك مرجوة وأن السداد من المنان الكريم.
- تصور أنك في الجهة الأخرى، فتذكر وقل الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأسأل الله العافية إذا رأيت أهل البلاء.

الهوامش:

- (1) صحيح مسلم. كتاب الإيمان، باب أن الدين النصيحة ج 1، ص 74، حديث رقم 55.
- (2) صحيح ابن خزيمة، باب الدليل على أن الحج عرفة، ج 4، ص 25، حديث رقم: 282.
- (3) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 170.
- (4) خطبة جرير يرويها أبو عوانة عن زياد بن علاقة قال: "سمعت جرير بن عبد الله يقول يوم مات مات المغيرة بن شعبة، قام فحمد الله وأثنى عليه وقال: عليكم بآباء الله وحده لا شريك له، له، والوقار والسكينة، حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن. ثم قال: استغفوا لأمريركم، فإنه كان كان يحب العفو ثم قال: أما بعد فإنني أتيت النبي ﷺ قلت: أبايك على الإسلام: فشرط عليّ عليّ " والنصح لكل مسلم " فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إني لناصح لكم. ثم استغفر ونزل. /فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 171.
- (5) قدمت المقاصد على المبادئ لما للمقاصد من مكانة ومكين، وتحصيلها عزيز ومنشود كل ناصح وفي معرفتها سعي حثيث لكل ناصح، فيعمل مجتهدا في توظيف هذه المبادئ والتمسك والتمسك بها والعض عليها بالنواجذ.
- (6) سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي. ج 11. ص 500.
- (7) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1، ص 171.
- (8) صحيح مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعا. حسن.
- (9) النصيحة- مفهوما وتطبيقا التربوية في الإسلام. سعد بن عطية بن محمد القرني. رسالة ماجستير. جامعة أم القرى. مكة المكرمة. المملكة العربية السعودية 1421/1422 هـ... ص 4.
- (10) مدارج السالكين. ابن قيم الجوزية. ج 1، ص 176.
- (11) المنطلق. أحمد الراشد. ص 26.

- (12) صحيح مسلم. ج.1. ص.93. رقم 147.
- (13) إحياء علوم الدين. الغزالي. ج.2. ص.306.
- (14) في ظلال القرآن. سيد قطب. ج.5. ص.264.
- (15) صفوة التفاسير. علي الصابوني. ج.2. ص.408.
- (16) المرجع نفسه. ج.3. ص.11.
- (17) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف. يوسف القرضاوي. ص.47.
- (18) الدعوة قواعد وأصول. جمعة أمين عبد العزيز. ص.141.
- (19) حياة الصحابة. محمد يوسف الكاندهلوي. ج.3. ص.338.
- (20) رواه مسلم.
- (21) الدعوة قواعد وأصول. جمعة أمين عبد العزيز. ص.154.22.
- (22) مسند الإمام أحمد.
- (23) صحيح البخاري. ج.4. ص.67. رقم 185.
- (24) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. البرهان فوري. ج.3. ص.105.
- (25) فتح الباري شرح صحيح البخاري. ج.1. ص.102. رقم 27.